ابو العلاء المعري

وفلسفة التاريخ

بحث في أحد جوانب الفلسفة العلائية

لعلي أدهم

ابو العلاء المعري شاعر كبير عرك الحياة وبلا الناس وترك في شعره ذخيرة لا يستهان بها لقراء القلب البشري ومفسري غرائب النفس الانسانية ؛ ولكن شعره الحاشد بالتبرم والسخط والغاص بالتشاؤم والتطير لا يسمو بك فوق متناقضات الحياة الى عالم الاتساق والانسجام ولا يرفعك الى الجو الفني الهادىء حيث تنسى الاوطار والالبانات ولا تهفو بك احزان الحياة ولا تطرقك هموم العيش ؛ وهو حكيم مخلص يكشف لك عن أعمق علاقات الكون بالانسان ويجلو لك افانين الطباع ويرسل الضوء في غيابات النفس ولكن حكمته لا تهدي الضال الى الصراط المستقيم ولا ترفع المصباح لساري الليل وخابط الشواء ولا تؤاسي من ساءه الدهر وتنكر له الحظ ولا ترد الى الامل من ازمع اليأس ولا تزيد المقدامة الشجاع اقداماً وشجاعة بل قد توهن ارادته وتثلم عزيمته وتيئسه من الصعود الى مصاف الابطال ومراتب العظماء

وابو العلاء هو هادم صروح اليقين وقاطع طريق الآمال البشرية، وهو يكمن لها في الشعاب والثنايا لاغتيالها ولا يكتفي بتركها جريحة دامية بل يقصفها قصفاً منكراً ويجهز على حياتها، وتجول من شعره في صحراء مترامية يقصر عن مداها الطرف ومهما ضربت في نواحيها فلن تصادف شجيرة واحدة تستذري بظلها، بل لاترى فيها اثراً للنبت والحشائش وتشاؤمه من الرسوخ والقوة بحيث يصح ان يكون معبراً عن تشاؤم جيل برمته او سلالة من السلالات البشرية بأسرها ، ولئن كان المتنبي يمثل جانب القوة والطموح من النفس العربية والبحتري يصف الجانب المتماوج الطروب من حياتها فان المعري يعبر عن الجانب المتطير منها كما عبر شوبنهاور عن تشاؤم الالمان وكما افصح ليوباردي عن تشاؤم اللاتين في القرن التاسع عشر ، وقد اعلن المعري على الحياة معركة لا مهادنة فيها ولا هوادة وتدرع لها بدرع موضونة من اليأس والزهد وجعل يقذفها بحملات شعواء ستظل تتجاوب بأصدائها الدهور وسيجد فيها كل مفكر مهما بلغ من رضاه من الحياة درساً صالحاً وعبرة صادقة

فما هو سر تشاؤم الرجل ؟ وهل هو عدوى عصره ومرض جيله ؟ وهل يئس المعري لانهُ أبعد الامل وأغرق في حسن الظن بالحياة فأيقظهُ من رقاده نذير الشقاء وداعي الألم ؟ وهل حلم المعري حلم الكمال وصحا من نشوة الحلم ولا تزال صورته باقية في معالم ذاكرته ثم التقى بالواقع المشوه الجديب فكرههُ واشاح بوجهه عنهُ ثم شرع بعد ذلك يثأر لنفسه المخدوعة محاولة هتك اسرار الحياة وتعديد مساوئها ؟ وهل عاش المعري حسير لباناته وصريع امانيه وعلالاته ؟ وهل كان له طموح في الحياة وامل في الصولة والغلبة فلما سلبهُ الدهر بصره ونكبه في سلاح من اقوى الاسلحة مضاء في معركة الحياة أضرم في نفسه كراهة الحظ وتمرد على الاقدار ولعن الايام ؟

لست ارى رجاحة اي وجه من هذه الوجوه ، وليس في حياة ابي العلاء وما انتهى الينا من اخباره ما يدل على انهُ كان حالماً بالكمال ولوعاً بالمثل الاعلى ، ولم يخدع المعري عن حقيقة الحياة وقد أحس من أول امره فوضى الحياة وخداع الاقدار وعماية الحظوظ وظل طول عمره يجمع الحقائق ويبثها وينظمها ويسلط عليها ملكته الفنية ليهاجم بها الآمال ويمزق شملها

واذا رجعنا الى عصر المعري لنستقري علاقته به ولنعرف هل استمد المعري تطيره من احوال عصره المضطربة وتشبع بهِ من جوه القاتم وجدنا المسألة غير مقنعة ولا شافية ، ولقد كان عصر المعري عصر شك وانحلال وانحدار في مهابط التدهور ، ولكن تشاؤم المعري كان أبعد اعراقاً من ان نعزوه الى حالة عصره ، وعبقرية المعري بطبيعتها عبقرية حزينة وقد قوى عصره نزعة التطير في نفسه وشحذ بأسه وأكد حنقه على الايام وتصاريفها ولكنهُ لم يخلق هذه النزعة ، وقد لاحظ اناتول فرانس ان الفلاسفة المتطيرين قد يظهرون في اوقات ازدهار الحضارة وصفاء الجو ، والمسألة قبل كل شيء مسألة مزاج شخصي وطبيعة نفسية قد يزيدها العصر قوة دون ان يوجدها وقد يضعفها ويحبس تيارها ولكن دون أن يقضي عليها ، واهم العوامل المكونة لتطير المعري كامنة في نفسه ضاربة في صميم طباعه ومردها الى احساسه الفردي ومشاعره الشديدة اليقظة والتنبه ، فابو العلاء بمزاجه من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا الثائرة على الوجود المؤثرة لظلمة العدم وصمت الفناء ، وهو يكره الحياة في الصميم والجوهر فضلاً عن الصور والاعراض ولا يشكو عصراً ليمدح آخر وانما كل العصور عنده سواسية والناس جميعهم اشرار خساس الطباع ليس لكسرهم جبر ولا لدائهم دواء يستطب بهِ فلا سبيل للامل ولا معنى للحرص على النسل في مثل هذا الوجود الخاسر ، ويرى شوبنهاور ان الحياة في نفسها «جريمة» نكفر عنها باحتمال آلامها ويرى المعري انها «جناية» جناها الآباء القساة على اولادهم المساكين وانها مصيبة تعالج بالبر والاحسان

تكونك في هذي الحياة مصيبة يعزيك عنها أن تبر وتحسنا

ويتفرد ابو العلاء من بين شعراء العرب قاطبةً بميزة واضحة لا سبيل الى نكرانها وهي انهُ

مفكر مثل نيتشه او شوبنهاور او رينان ان يعبر عن نفسه التعبير الكامل في عصر مثل عصر لويس الرابع عشر او العصور الوسطى ، وما كان ليسمح عصر مثل عصر عبد الملك ابن مروان او عصر الرشيد بوجود المتنبي او أبي العلاء ، وهذا من أشد ما يتعاه الفرديون على أنصار الاشتراكية لانها تحاول باحكام الروابط الاجتماعية ان تصبَّ الناس جميعاً في قوالب متشابهة وتقضي على النزعات الفردية واختلاف ألوان الامزجة . وقد كان أبو العلاء كسائر كبار الشعراء ينهم التفكر شغوفاً بتعرف كل شيء مطبوعاً على تلك العالمية الخاصة بالمبقريين ، وهذا الاتساع النفسي من شأنه ان يوجه النظر الى التاريخ ويغري بالتعمق في تأمل حوادثه واستعراض صوره ومن ثمَّ كان للثقافة التاريخية دخل كبير في تكوين كبار شعراء العالم وفي أشعار هوميروس وفرجيل وروايات شكسبير وجيتي وشلر وبيرون شواهد نواطق بذلك ، ولم يكتف بعض الشعراء بتناول التاريخ في منظومات الشعر وبرائع الملاحم بل أوقف جزءاً من حياته على كتابة التاريخ كما فعل شلر في كتابة تاريخ حرب الثلاثين سنة وكما فعل هيني في مقالاته الانتقادية

وأبو العلاء الذي برَّ شعراء العرب وحلق فوقهم بعبقريته العالية واخلاصه الجم للادب والحياة يفوقهم جميعاً من ناحية النظرة التاريخية ، ومن كان في عمق أبي العلاء فلا مفرَّ لهُ من ان يطالع قصة الخليقة ويجول في تاريخ الانسانية ليسرد أخبارها وينصَّ عبرها ويتأمل ما انتابها من آمال وآلام وما لحقها من يأس ورجاء وما تعلقت به من عقائد ومذاهب وما مرَّ عليها من مختلف الاطوار ومتنوع الحالات ، وقد وجد في التاريخ مجالاً رحباً لتطيره وتنفذاً لسخريته ، وكان يشعر بغزارة معرفته التاريخية ويقول

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الاَّ وعندي من أخبارهم طرف

وفي الحق ان أبا العلاء لم يقصد بهذا البيت المباهاة الكاذبة والفخر الاجوف وانما قرَّر حقيقة تدعمها لزومياته وتشهد بصدقها سائر آثاره

ومن أدمن النظر في التاريخ وأطال التأمل في حوادثه لا بدَّ ان ينتهي فيه الى رأي خاص ويكوِّن لنفسه فلسفة ينظر الى التاريخ في ضوئها مهما كانت قيمة هذه الفلسفة من الحق او من الباطل وسواء أراد قارىء التاريخ ذلك ام لم يرده وأدركهُ أم لم يدركهُ . ورجل مثل ابي العلاء حائر شاك منفرد بنفسه ماهر في التنقيب على مواطن الضعف في الانسانية نزاع بفطرته الى التطير من الواضح اللازم ان تسمح في فلسفته التاريخية صدى يأسه وترى أثر تألمه وتسخطه ، وقد كان ابو العلاء شديد الفردية في احساسه يصادم المجتمع بفرديته الاوحدية الشاذة ولا يرضى النزول من برجه العاجي للانغماس في تيار الجماعة وانما الدنيا ملعب وهو متفرِّج لا لاعب كما في قوله

والارض رقعة لعَّاب مقسمة منها سهول وأجبال وحزان

مرارة والماً فهم يبشرون باليأس والتزهيد في الحياة ويندبون حظ الانسانية ويقفون على اطلال الحضارات يبكون مصائر الامم، وفلسفتهم حزينة مجللة بالسواد ملأى بصور الفناء، والانتصار في نظر اصحاب هذه الفلسفة نذير الهزيمة والحياة دليل الموت والضوء رسول الظلمة، وكل عمل يتم على حماسة ويقين ينظرون اليه نظرة المتشكك المرتاب فلا ينجو من سخريتهم آثم ولا مصلح ولا يفلت من تهكمهم حامل القلم ولا رب التاج، وهم يسخرون بانفسهم وبالطبيعة والكون وبالله نفسه وانبيائه، وكأن الطبيعة التي ضنت عليهم بروح الامل والسرور الخالص قد حبتهم بالنصيب الاوفر من ملكة السخرية والاستهزاء.

ويعمد اصحاب هذه الفلسفة الى طرق كثيرة للتسلي ، فمنهم من يتلهى بالكأس واللذة على طريقة عمر الخيام او بتحليل نفسه على طريقة فردريك اميل او بالاشتغال بغريب اللغة كما كان يفعل ابو العلاء ، مصنف كتاب الايك والغصون وكما فعل ليوباردي الذي كان امام المتطيرين في عصره وكان في نفس الوقت اكبر لغوي في زمنه في آداب اللغة اليونانية ، ومثل بسكال الذي برع في الهندسة وان كانت الروح الدينية التي غلبت على عصره قد منعتهُ من الايغال في التطير

اما المدرسة الثانية فهي تؤمن بالتضامن الاجتماعي وقانون التقدم وترى ان الانسانية سائرة الى الكمال وهي تستخلص ذلك من نزعة الاجتماع الغريزية في الانسان ومن وحدة النوع الانساني واتفاق الغرض الذي ترمي اليه الانسانية وتتجه نحوه جهودها المشتركة، وهي ترى ان خير كفيل بتحقيق امل الانسانية هو انتقال الحق من جيل الى جيل وذلك النزوع الى الكمال الذي يهوّن التضحية ويوحي الاديان ويعمر القلوب بالايمان، وجهود الامم والافراد ليست ضائعة ولا ذاهبة عبثاً وما آثرهم خالدة والشر الذي نشكوه سينخفض عن الخير وستستحيل اخطاء البشر على مدى الايام منافع جزيلة وخبرات سابغة ويأسف اصحاب هذا المذهب لوجود الشر والفوضى في الحياة ولكنهم لا ييأسون من مقاومته واصلاح الحياة وتهذيبها

ويفخر كلا المذهبين بطائفة من الاسماء البارزة في تاريخ الفكر الغربي ، فمن انصار المذهب الاول ماكيافلي وشوبنهاور الذي يقول «ما دامت الحياة ابدية فان فكرة التقدم لا محالة باطلة» وكارلايل، ومن القائلين بالتقدم بيكون وديكارت ومثله وأوجست كنت، وابو العلاء في نظره للتاريخ ينتسب الى المذهب الاول فهو ينكر التقدم ولا يرى جديداً تحت الشمس فيقول عن الناس

يسعون في النهج الملوك قد سبقوا الى الذي هو عند الغر مخترع
ابكار هذي المعاني ثيبات حجا في كل عصرٍ لها جانٍ ومفترع

وهو لا يهتف للمنتصر وانما يحذره عاقبة كآبة المغلوب فيقول له

لا تفرحنّ بدولةٍ أوتيتها ان المدال عليه مثل الدائل

وينذر من احتوت يده على شيء بأنهُ سيفقده لان

من يعط شيئاً يسلبهُ ومن يتم جنح الظلام فانهُ سيؤرق

وأبو العلاء لا ينظر الى الماضي نظرة اكبار ولا يحيطهُ بهالة من التقديس والقدماء في نظره لم يكونوا اكرم طبعاً وأبر نفساً من اهل عصره

ما كان في الارض من خير ولا كرم فضلٌ من قال ان الاكرمين فنوا

وأما حكم العقل في قضية المفاضلة بين القدماء والمحدثين فهو كما يروي لنا ابو العلاء

يخبر العقل ان القوم ما كرموا ولا افادوا ولا طابوا ولا عرفوا

طاشوا طويلاً وماجوا في ضلالتهم ولا يفوزون ان جوزوا بما اقترفوا

بل لم يتسم فرد واحد منهم بالحكمة وفصل الخطاب ولم يؤت العقل والرشد احد والارض لم تعرف الانسان الاعلى ولن تعرفهُ

ما كان في هذه الدنيا اخو رشد ولا يكون ولا في الدهر احسان

وانما يتقضى الملك عن غير كما تقضت بنو نصر وغسان

ويردف ذلك بقوله: ولم يأت في الدنيا القديمة منصف ولا هو آت بل تظالمنا جزم

فاذا ضقت ذرعاً بعصرك وبرمت بشروره آساك ابو العلاء بقوله

شكوت من اهل هذا العصر غدرهم لا تكرنَّ فعلي هذا مضى السلف

فاذا شككت في ذلك اكده بقوله

لا يخدعنك اخرانا كأولنا في نحو ما نحن فيه كانت الامم

فاذا وصل الى مسمعه ان هناك قوماً يعلقون الامل على المستقبل ويرجون من ورائه الخير وتحقيق الاحلام هزَّ رأسه وأنشد

يقال ان سوف يأتي بعدنا عصر يرضي فتضبط اسد الغابة الخطم

هيهات هيهات هذا منطق كذب في كل صقر زمان كائن قطم

ومن يدري فقد يستفحل الشر ويتفاقم الخطب في المستقبل

والله يحمد كلما طال المدى طفت الشرور وقلت الاخيار

وكان المعري يرسل فكره الى الماضي السحيق والمستقبل البعيد فيرى الحياة بين هاتين الهاويتين صوراً سريعة يتناولها الفناء وخيالات تزول كما تزول دوائر الماء حول مواقع الحصيات في سطوح البحيرات، فما قيمة الدول العظيمة والآثار الضخمة وما تأثير النجوم اللامعة والشمس الساطعة وما قيمة العواطف البشرية ومتع الروح ولذات النفس ؟ كل هذا ضائع في الابد الزاخر، والانسان هذا الطيف الزائر والسائح الغريب في هذا الكون يعيش قليلاً ثم تطوى صفحته ويدرج في قبره والدنيا بحالها

تمضي وتترك البلادَ عريضة والصبح انور والنجوم زواهر

وقد تضيع اخبارنا وتدثر آثارنا كما ضاعت في جوف الدهر آثار من قدم الارض قبلنا

سيسأل ناس ما قريش ومكة   كما قال ناس ما جديس وما طسم

والبشرية التي تناهت في التاريخ وتلك الاجيال المتلاحقة انما هي صور تتراءى الى الليل الابدي وتغرق في زواخر الدهر وهي اشبه بالخيالات والاشباح تلوح ثم تختفي وانما البشر

اشباح ناس في الزمان يرى لها   مثل الحباب تظاهر وتواري

أو شخوص اقوام تلوح فأمة   قدمت مجددة وأخرى تهلك

والدهر هكذا مستمر في دورته يطحن الاجيال ويطوي الايام

عش ما بدا لك لن ترى الأمدى   يطوي كمادته ودهراً داهرا

وانما هي حركة مكررة معادة والدهر اكوان تمر سريعة   ويكون آخرها نظير الاول

والوجود كله كدر لا صفو فيه

لا أزعم الصفو مازجاً كدراً   بل مزعمي ان كله كدر

ولا امل في اصلاح الكون وتقويم اعوجاج الناس وعلاج الطبائع

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا   فلا ترومن للاقوام تهذيبا

وهم كذلك لان النبعة التي استقوا منها نبعة فاسدة

تفرع الناس عن أصل به درن   فالعالمون اذا ميزتهم شرع

والانكى من ذلك انه

يكفيك شراً من الدنيا ومنقصة   ألا يبين لك الهادي من الهاذي

والناس في غفلة لا يفيقون منها

وما عيون الناس فيما ارى   منتبهات من طويل السنة

ولقد اجرى اناتول فرانس على فم المؤرخ الكهل لملك فارس المحتضر في احدى محاورات كتاب آراء جيروم كوانيار كلمة هي خلاصة فلسفته التاريخية وهي قوله في تلخيص تاريخ البشر « انهم ولدوا وتألموا وماتوا » ويصح ان تكون هذه الكلمة موجز رأي ابي العلاء الذي يقول

خلقنا لشيء غير باد وانما   نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك

بل قد انحدر به اليأس الى ابعد من ذلك حيث فقدت الاشياء في نظره حقيقتها واشتبهت عليه ميزاتها وصفاتها

فنحن في غير شيء والبقاء جرى   مجرى الردى ونظير المأتم العرس

وهذه هي اعمق قرارات اليأس ولكنها ايضاً الذروة العالية التي ارتفع اليها المعري في عالم المفكرين المتطيرين واستحق بها ان يكون الامام الثبت والحجة الثقة في وصف علل الحياة وادواء النفوس ولئن كان يشك من ابي العلاء جهامة الحزين الذي لا تزدهيه اعاجيب الحياة ولا تطربه انغامها فقد يسليك منه تبسم الساخر الهاتف الذي لا يخفي شيئاً من سخريته ولا يغفل لحظة عن تهاتفه